

«تأوه الإنسانية شبه المسحوقة تحت ثقل التطورات التي أحدثتها.
إنها لا تعرف تماماً أن مستقبلها متعلق بها».
هنري بيرغسون (1859-1941م)، المصدرين للفضيلة والدين.
«لا أحد يعرف مستقبل الفجر القادم» مثل زنجي.

الفصل الأول

الرأي غداً

لماذا نبدأ بالمستقبل؟

جرت العادة على أن يبدأ العمل الجدي بتاريخ مختصر للموضوع المعالج، ويظهر أن له جذوراً في تربة الماضي الخصبة، وهكذا يكون لدينا انطباع — أو وهم — بوجود استمرارية بين الأدوات الحجرية لأجدادنا القدماء والتقنية المتطورة التي يسيطر عليها أطفالنا بشكل أفضل منا.

ولكن التلفاز لا ينسجم مع هذا التمرين، ما تاريخه؟

إذا لم نضعه ضمن تاريخ الاتصال، ولم نعد به إلى النقوش الحجرية للعصور السحيقة، فإنه لا وجود له، التلفاز فتي جداً، بل فتي إلى أقصى الحدود، لا يمكننا تصور مراهق ملاً وجهه حب الشباب يكتب مذكراته. وليست علاقة الاختراعات التقنية التي صنعت التلفاز بالتاريخ هي أفضل حالاً، لأننا هنا كذلك لا نعرف أين نبدأ؟ بالكهرباء؟ أم بمذياع أجدادنا؟ أم محلل الصورة لزوركين، والذي يعتبر الآلة الأولى لتحويل الإشارات الإلكترونية إلى صورة؟

في الواقع إن تاريخ التلفاز هو أقل بكثير كماضٍ انقضى منه، كسلسلة من مراحل مستقبلية غير معقولة تم إنجازها، وكان ذلك تارة للخير وللشر تارة أخرى منذ وهلة قصيرة بحساب الزمن، ولكنه سيدوم طويلاً دون شك، سواء كان هذا يجعلك تطير فرحاً أو يجعلك تغوص في الوجوم المطلق.

التلفاز هو مستقبل الرجل



إن الصدمة المستقبلية لم تحدث حتى الآن

المستقبل سيخبرنا، المشكل أن التوقعات للاختصاصيين المشهورين كذبتها الوقائع، ونحن لا نعتبر أنفسنا اختصاصيين ولا مشهورين، ولذلك فإننا قد نسيء قراءة المستقبل، أو على الأقل لا نتفوق على من قام بهذا، فكتاب ألفين توفلر، «صدمة المستقبل»، يدعو للضحك اليوم لأن توقعاته تبدو ساذجة بعد مرور جيل صغير على كتابته، ما فات عالم الاجتماع الأمريكي الكبير هو قدرة المجتمع على تحقيق ما يعد به العلم، إن القطار المعلق ذا المحرك المستقيم والهاتف المصور الذي ينقل الصورة، والكرسي الرافع الشخصي..... إلخ، كلها يمكن إنجازها من الناحية التقنية منذ وقت طويل، ومع ذلك ما زلنا نفضل القطار والهاتف والسيارة في الزحام، ما زلنا نستعمل المهدة في ورشات البناء؛ لأن السلوك والعرف الاجتماعي يتطور ببطء أشد من تطور العلم، باختصار الأمر ليس سهلاً، وللتنبؤ بالمستقبل يجب أن نعرف التطورات التقنية المستقبلية، إضافة إلى التنبؤ بالعادات والموضة والعوامل العديدة المنطقية وغير المنطقية التي تغير وجه العالم.

ماضي المستقبل

إذا كنا نجهل المستقبل فإننا نعرف الماضي، ولكن هذا الماضي نفسه كان مستقبلاً في السابق لا يعرفه أحد ثم أصبح جلياً تراه كل الأعين اليوم. دون العودة إلى ما توسالم، لننتقل إلى العام 1935م بالخيال، ولنحاول التعرف على رينيه بارتيليمي مهندس شركة العدادات في مون روج، ضمن قفص من الأسمنت المسلح المبطن استقبل الوزير جورج مانديل ليطلعه على شيء يشبه جهاز المذياع له نافذة تعادل مساحة بطاقة بريدية على أحد جوانبه.

وخلف الزجاج المحذب ظهرت صورة مقدمة البرنامج مهتزة ومتقطعة ولكنها متحركة كالصور المشاهدة على شاشة السينما، لا توجد آلة عرض ولا بكرات ولا مصابيح، كانت المرأة قريبة جداً بلحماها وعظمتها تحت العين الكهربية للكاميرا، هذا السياسي والضحية الأولى للإعجاب بالتلفاز زود برج إيפל بجهاز إرسال تجريبي من غير أن يكثر ذلك أحد، لم يكن أحد في ذلك الوقت يمكنه تنبؤ مستقبل شيء لم تكن ندري بوجوده، ولكنه رغم ذلك سيغزو كل بيت في فرنسا خلال بضعة عقود من الزمن.

ولم يكن بارتليمي الأول في هذا الموضوع، ففي عام 1932م كان المدعو هنري دوفرانس يحصل على صور باستخدام أنبوب مهبطي، وقبل ذلك بمدة تخيل الروسي نيكو اختراع قرص قادر على تحليل الصور، وهذا دون شك حدس عبقري في عام 1884م!!، وربما قبله الجهود المبذولة الضائعة للقس الفلورنسي جيوفاني كاسيلي، وجهازه الراسم للذبذبات «بانتيغراف» الذي يرسم عن بعد في عام 1862م، والذي جسد مسبقاً الجهاز الذي بنى عليه إيطالي آخر سيلفيو بيرلسكوني إمبراطوريته الاقتصادية والسياسية بعد قرن من الزمان! اختراع عظيم يتوقع له مستقبل باهر؟ مجرد طرفة محكوم عليها بالكتمان هكذا، بدأ تلفاز BBC عام 1939م ببرنامج ذي الأربع وعشرين ساعة أسبوعياً، وعشرين ألفاً من مشتركيه، والذين أصبح عددهم مليونين بعد أربعة عشر عاماً، وهذا يعني ازدياداً قدره مئة ضعف.

الأمر الجديد الذي حدث هو التعاون بين مخترع عبقري وإمكانيات مالية لتحقيق هذا الاختراع، إن الشخص الذي اختير اختراعه كان فلاد يميز زوركين، وكانت الشركة RCA هي صاحبة الفكر الواسع بتوظيفه كباحث، كانت الشركة الأمريكية مقتنعة بمحلل الصورة «إيكونوسكوب»

الذي اخترعه العالم الروسي في العام 1934م، وكان أول جهاز معتمد كلياً على الإلكترونيات، بعكس الأجهزة السابقة التي كانت تعتمد على مبادئ كهربيسية وربما ميكانيكية.

وكذلك هنا كان المال هو الأساس لتحقيق الحلم المستقبلي، فلولا أن شركة RCA لم توظف مبلغاً هائلاً بالنسبة لذلك الوقت يقدر بتسعة ملايين دولار على جهاز اخترعه شخص غريب الأطوار، لولا حدوث ذلك لما حصلنا على متعة كتابة هذا الكتاب، ولنجوت من الإكراه على قراءته!

في عام 1950م لم يكن يراهن على التلفاز الملون سوى شخص حالم، ورغم ذلك فقد أصبح متوفراً بعد عام من ذلك في الولايات المتحدة، ففي الستينات كان جاك دوير دنكار يغني «عندي المحطتان والألوان، كم أنا سعيد!» ليعلن رفضه للجري اللاهث وراء التطور العاجز عن إعطاء معنى حقيقي لحياتنا.

هل كان بإمكانه أن يخمن أن المحطات التلفازية سيصبح عددها بعد زمن ليس بالطويل يقدر بالعشرات بل بالمئات، هذا عدا الصورة ذات الأبعاد، وتطورات أخرى لا تخطر على بالنا.

ولنقم بقفزة عبر التاريخ ولنتوقف عند العام 1980م. كيف تنتقل الصور المتلفزة؟ عن طريق موجات مصدرها صادات طبوغرافية وتغيرات كهربيسية للوسط المحيط، إن سكان الوديان السحيقة والأماكن النائية يعرفون تماماً أنهم لا يستطيعون التقاط إرسال جيد ترسله محطات أعدت للمراكز السكنية الكبيرة، من كان ليراهن بقروش في ذلك الوقت على إمكانية وصول الإرسال من السماء، غير عاجب بتوضع الهوائيات والمحطات المرسل والمستقبل؟ ورغم ذلك فاعتباراً من عام

1987م أصبحت كل القارة الأوروبية مغطاة بالأقمار الصناعية، وبذلك بات الحصول على صور دقيقة لكل القارة ممكناً وبدون استثناء.

عندما حرر غوغليلمو ماركوني وسائل الاتصالات من عبودية الأسلاك في عام 1895م لم يخطر بباله في حال من الأحوال أننا بمرور أقل من مئة عام سنعود لاستخدام الكابلات بتصميم، وذلك لتخلص من متاهات الأثير التي لا يمكن السيطرة عليها، وخاصة لا يمكن فرض ضرائب عليها. ومع التقدم الذي حصل في مجالات معقدة جداً كالألياف البصرية، فإنه بإمكاننا أن نمرر آلاف المعلومات خلال كبل كان غير قادر سابقاً على تمرير رسالة مورس واحدة من نوعية سيئة، مع زيادة العرض فيما يتعلق بالبرامج تظهر المشكلة الحادة في اختيارها، هل كان يخطر ببالنا أو نحلم قبل عشرين عاماً بتسجيل برنامج بيت بنفس الوقت الذي ترى فيه برنامجاً آخر بيت مباشرة؟ واليوم كلُّ يستطيع استخدام جهاز الفيديو، وأن يبرمجه كما يريد ليحصل على مكتبة من الأفلام المفضلة.

حيث توجد المحطة التلفازية، لا توجد متعة.

في عام 1994م لم يكن عدد البيوت التي زودت بنظام الكابلات يزيد عن 1.4 مليون منزلاً مقابل 13.5 مليون في ألمانيا، وبدفع ضريبة تلفاز شهرية قدرها 145 فرنكاً مقابل خدمة الكبل، استطاعت هذه الأسر المحظوظة في فرنسا توسيع حقل التخليب اليومي بإضافة عشرين محطة إضافية.

وهكذا فإن بإمكان المشاهد الفرنسي سواء عن طريق الأثير أو الأقمار الصناعية أو الكبلات استقبال 118 محطة تلفازية مختلفة

(هل هي حقيقة مختلفة؟). إننا نعد الآن في فرنسا اثني عشرة محطة مختصة بموضوع محدد مقابل 78 محطة في الولايات المتحدة. بلند، بول

المستقبل قد بدأ فعلاً

يجب أن نتطرق الآن لاحتمالات تطوير الرائي الممكنة، إن أول الحقائق التي يجب تقبلها هو أن الرائي سيكون حاضراً في القرن الحادي والعشرين، لقد تلمظنا كثيراً باختراعات عديدة يُتوقع لها مستقبل باهر، من الشاشات الحائطية في البيوت إلى الهاتف المتلفز الذي يسمح برؤية رأس الشخص الذي تحادثه على الجانب الآخر، ولكننا نسينا أن نطرح السؤال الأساس، هل سيكون الرائي موجوداً؟ إنه سؤال يبدو سخيلاً، ولكن عدد التقنيات التي طرحت جانباً كبير، من الطباعة بالتضيد إلى الآلة البخارية، من منا لم يتمنّ التخلص يوماً من اختراع مزعج ولا يمكن السيطرة عليه؟ بخصوص الرائي والفيديو والحاسوب يجب علينا أن نتقبل فكرة أنها ستحتل مكاناً أوسع في حياتنا خلال السنوات المقبلة رغم أن أشكال هذا الاحتلال لا يستطيع أحد الآن تخيلها.

التطور الأول: الكم

يصعب الخطأ في الإجابة على هذا السؤال، إن التعميم من التجربة السابقة، وجرد الثقافات الجديدة المتوفرة تسمح بتأكيد حقيقة أن العرض الكمي من البرامج سيزداد حتماً.

ما زلنا نتذكر الثورة التي أحدثها ظهور «المحطة الثانية» في فرنسا. ثم بدا ظهور المحطة الثالثة طبيعياً تماماً، بينما لم يستدع ظهور المحطات التجارية سوى بعض التصريحات السياسية غير التقنية للترحيب بها. إننا نعتبر الآن طبيعياً تقليب المحطات الذي ينقلنا عبر المحيطات من بلد لآخر، ومن الإيطالية إلى الإنكليزية مروراً بلغات أخرى التعرف عليها أكثر صعوبة مع جيل الأطباق الهوائية وخاصة الكابلات، فالمشكلة لن تكون في العثور على برنامج يعجب بمساعدة أو بدون مساعدة مجلة مخصصة لذلك، وإنما أن لا نضيع في متاهة البث التي تشمل مئات المحطات.

إن تطور الأمور يسير نحو البحث عن موضوع محدد: فنحن لن نختار بعد الآن المحطة، وإنما عنوان ما نريد كالرياضة أو الموسيقى الكلاسيكية، أو السينما الفرنسية قبل الحرب العالمية أو المنوعات، إنهم يتنبؤون باختراع أجهزة تتعلم على معرفتك، وتعرف أنك لا تشاهد مباريات القدم أبداً، ولكنك تشاهد الأوبرا، وتوجهك إلى المحطات التي يمكنها أن ترضي ذوقك، إن برنامج الأخ الأكبر «Big Brother» ليس بعيداً عنا.

التمن الغالي

الاستثمار: إن نفقات تطوير التطبيقات متعددة المصادر التلفزيونية سيزداد من 650 مليوناً إلى 5 مليارات مارك بين العامين 1991م و2000م في البلدان الأوربية الأربعة الكبرى (ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا). وفي سويسرا يقدر الإنفاق على هذا الموضوع بمليار فرنك سويسري.

الرأى والتعليم: في الولايات المتحدة إن الثقافة التعليمية المنشورة عن طريق الشبكات عديدة القنوات تصل كلفتها إلى 400 مليار دولار بنهاية العقد الأخير من القرن الماضي، وتقدر قيمة هذا السوق في ألمانيا بمئة مليار مارك.

الرأى الطبي: إن الصور الشعاعية المنمنمة والمتداولة عبر الشبكات بين المنشآت الطبية سوف توفر في الولايات المتحدة 140 مليار دولار في السنة (إلغاء الأفلام وتحميضها إلخ...)، ولكن يجب استثمار عدة مئات من المليارات للتزود بالتجهيزات الجديدة اللازمة لذلك.

معارك العمالقة: إن زواج تقنيات الهاتف والرأى والمعلوماتية يتطلب مناورات إستراتيجية كبيرة من قبل أكبر الشركات العالمية في هذا المجال، ففي العام 1989م ولدت المجموعة تايم - ورنر التي تعتبر المجموعة الثانية لكابلات الرأى في الولايات المتحدة من اندماج عملاقي النشر والسينما، ومنذ ذلك الوقت ازداد احتدام المعركة على شكل إعادة شراء واندماج واتفاقات لتجميع الكفاءات واحتلال الأمكنة الأولى في السوق المستقبلية، التعاون بين بل أتلانتيك تلفون وتيليه كومونيكا سيون العملاق في مجال الكابلات التلفزيونية (33 مليار دولار خلال 5 سنوات). إعادة شراء باراماونت للاتصالات المنتجة لأفلام من قبل فياكوم المالكة للشركة (8.2 MTV مليار دولار) ! التحالف بين الاتصالات البريطانية وشركة الاتصالات قصيرة الموجة المرتبة بالدرجة الثانية في مجال الاتصالات الهاتفية بعيدة المدى (4.3 مليار دولار).... هذه العمليات كانت أمريكية خاصة،

وهذا يعني أن مستقبل الاتصالات في العالم سيكون متأثراً إلى حد كبير بالثقافة الأمريكية (Yankee).

مجلة المعلم رقم 13، 1994م

إن زيادة الطلب يمكن لها أن تأخذ اتجاهاً آخر: يمكن لجهاز الرائي وبحسب مبدأ مشابه للمينيبتيل الحالي أن يصبح من وقت لآخر بنكاً للمعلومات، ومركزاً للتوجيه، ولتبادل الرسائل الغرامية سواء رُبط بالحواسب أو لم يربط.

ولا يهم هنا الشكل الذي ستبدو به هذه الإنجازات الجديدة وإنما تغير السلوك الذي ستؤدي له، يبدو أن حقبة البرامج المعنونة بحرف E الكبير وهو بداية كلمة طفل بالفرنسية، والتي تختار بعناية وتراقب بدقة ستنتهي قريباً، ويجب أن لا ننسى أن نأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة عندما نحلل الآثار والأذى الذي يلحقه الرائي بالأطفال، لأن استنتاجاتنا سوف تعتمد على الشكل الحالي لوسائل إعلام هي في أوج تطورها، إن الحصول على الصورة سيكون سهلاً للغاية ومحرراً من قيود التوقيت، وسنقول سقى الله أيام برامج الأطفال الثابتة الموعد التي تتيح للآباء أن يتحكموا بمشاهدة أطفالهم للرائي، وفرض الشروط المعتادة لهذه المشاهدة: أداء الواجبات المدرسية و ترتيب الغرفة وإخراج الكلب لقضاء حاجته.... إلخ، إن هدف الكتاب المعلن هو السيطرة على الشاشة الصغيرة، ولذلك يجب ألا تدغدغ الأحلام عقولنا، فإذا لم تمارس رقابة شُرطية (بوليسية) على أطفالنا ليلاً ونهاراً فإن أبناءنا وأحفادنا سيشاهدون الرائي، علناً أو بالخفاء تحت أنظارنا أو في مكان آخر وأكثر من أي وقت مضى.

إن السبيل الوحيد الفاعل لحل هذه المشكلة هو تثقيف الأطفال حول الرائي، وهذا ما سنؤجله للفصل الأخير.

التطور الثاني: التفاعل

إن اللحن الحزين الذي غنيناها كلنا يوماً حول السلبية التي تولدها الشاشة الصغيرة سيكون قريباً جزءاً من الماضي. (وهذا لا يعني أن الأمور سائرة إلى الأفضل).

فباستطاعتنا دون الوقوع في الهذيان أو الخيال أن نتوقع تطور الأمور باتجاه مشاركة أكبر وتفاعل من طرف المشاهد، فتوجد أمثلة لتجارب في طورها الجنيني الآن، مثل المسلسلات التي تستطيع اختيار نهايتها، ولكن الأمر الأهم ليس هنا، سوف نكون قريباً بوضع يشابه وضع القارئ الذي يمر من كشك يبيع عنواناً أو عنوانين فقط إلى مكتبة غنية يمكنه فيها أن يقرأ بحرية حسب مزاجه، أو أن يلجأ لفهرس المحتويات ليجد كتاباً معيناً، فبدلاً من السؤال: «ماذا يوجد على القناة الثالثة هذا المساء؟ سيحل السؤال أين يوجد فلم رعاة بقر جيد؟». هل هذا الأمر سهل؟ بالتأكيد لا. إن موقف مستهلك الصورة يتغير تماماً للأفضل، إن الوقت باكر جداً لنقول هذا.

مثال آخر لتفاعل ممكن: بينما تشاهد مباراة لكرة القدم، تتساءل أحياناً إذا حصلت مخالفة في الموقف؟ (أوفسايد) وعندها تنتظر العرض البطيء للمشهد الذي يسمح لك بإعادة رؤيته إذا انتبه المخرج لحدوث هذه المسألة أثناء المباراة، قريباً سيكون بإمكانك مثلاً أن تختار بنفسك زاوية الرؤية، وتعيد رؤية المشهد المرات التي تريد إلخ..... وسيردون علينا بأن هذا الموضوع سيكون متعلقاً دائماً بلعبة القدم وحدودها بالتأكيد.

وهكذا ستتعلمون كيف تشاهدون، وتطالبون بفهم ما تشاهدون، هذا ما يؤكدوه لنا، ويعتبره البعض ثورة حقيقة في عالم الأفكار.

مثال أخير بسيط وعملي: مراقبة الطفل الرضيع أثناء مشاهدة البرنامج المفضل، كاميرا داخلية في غرفة الطفل موصولة بالرائي، ونافذة صغيرة في زاوية الشاشة تقتطع من الصورة الكاملة يمكن الحصول عليها بجهاز التحكم عن بعد: وهكذا سيكون بإمكانك الاختيار بين دموع البطة ودموع الطفل الصغير وما تبقى هو أن نعرف، ممّ سيكون تحررنا؟

وعلى كل الأحوال فإن سلوك المشاهد بكامله سيطور باتجاه استقلالية أكبر وخيارات وحرية أكبر، ولكن على الطرف الآخر مزيداً من السيطرة والتلاعب والتدخل في الحياة الخاصة، وهذا الأمر له شواهد من حياتنا اليومية نراها في تقنيات الاتصال واستطلاعات الرأي والشراء بالمراسلة، والتي تسمح للمتفذين من أصحاب السلطة السياسية أو الاقتصادية بتجميع المعلومات حول كل منا ليؤثروا علينا بالاتجاه المطلوب.

المستقبل ليس في الأداة

حتى إذا استمر اختراع طرق عبقرية لتحسين (أو لإساءة) التعايش مع الشاشة، ورغم العديد من التحسينات الممكنة بل والضرورية للحصول على نوعية مترقية من الصور، فإن الثورة القادمة ستطال شيئاً آخر، بلا شك الوضوح الكبير بزيادة عدد الخطوط، وزيادة أبعاد الشاشة، والصورة ذات الأبعاد، والصوت المتناغم مع الصورة... إلخ، تفتح مجالات شيقة في مجالي الثقافة والتعليم، فلوحة لواحد من كبار الرسامين على 919

خط تجعل الإنسان يشتهي المشاهدة، وصوت سوبرانو بالإمكانات الحالية يعطي نتفة صغيرة من غنى الأوبرا، وفيلم أمريكي 70 ملم على شاشة شبه مربعة ذات قطر مائل يصل بالكاد إلى نصف متر يرضي فضول شخص محب للسينما، إن بن هور مثل بافاروتي سيستفيدون دون أدنى شك من التطورات المذكورة ومن أخرى لا تخطر لنا الآن على بال.

إن الانقلاب الذي نشهد حدوثه بأمر أعيننا يحدث في مجال مختلف تماماً، وهو حيز السلطة، وهنا نغادر مجال التقنية المطمئن لنخوض في مجال زاخر بالحركة متعلق بعلمي الاجتماع والنفس، وهنا نخرج من المختبر والمعمل لندخل عالم السياسة واللوبيات والتلاعب بالأخبار المتلبد بالغيوم، وإذا كنا لم نصل بعد لمرحلة دق ناقوس الخطر، فإن أشد درجات الحذر مطلوبة، والأمثلة التاريخية تؤكد إلى أي درجة استطاع ملاك وسائل الاتصال الحديثة أن يسيطروا سيطرة تامة على معاصريهم. ويخطر ببالنا الرايح الثالث، والسيطرة على المذيع من قبل هتلر وكوبلز، والحدث الأقرب إلينا هو حرب الخليج أو المقبرة الجماعية في جبال تيميسورا في أفغانستان.

وهكذا فالتطور الحادث في أدوات الاتصال سيزيد إلى حد استثنائي قوة أولئك الذين يسيطرون على نظام الاتصالات.

المحطات الجديدة

وسائل الإعلام المتعددة (Multimedia) خلف هذا المصطلح الجديد المريح بمصدره اللاتيني تكمن الآلة الأكثر سحراً للاتصال في كل العصور. وتعتمد على اختراعين تقنيين عاديين إذا أخذ كلُّ على حدة:

- التعداد المزدوج: وهو تركيز بسيط للغاية مكون من إشارتين نعم أو لا. والأصوات والصور تخزن بنفس الطريقة، وتنتقل وحدات التعداد المزدوج «bits» كل معرفة الإنسانية المتراكمة منذ ولادتها.
- الألياف البصرية: وهي ألياف دقيقة تسمح بمرور الضوء وليس التيار الكهربائي، وهي تسمح بنقل مباشر وكمية غير محدودة من المعلومات.

والباقى ليس إلا تطبيق لإجراءات تسمح بتصغير أحجام أجهزة التشفير وإزالة التشفير من جهة، وانتقال المعلومة في الاتجاهين من جهة أخرى. وهذا يعني التصغير والتبادل. بوضوح إننا نملك الآن لغة عالمية وقدرة على البث غير محدودة بأن واحد، إننا نتكلم عن طريق واسعة متعددة الاتجاهات معبدة لنقل المعلومة، تشمل الهاتف القديم للجد غراهام بل، وبنفس الوقت دعم الحاسوب المنزلي الذي يصل كل المستخدمين بين بعضهم، ويصلهم بكل بنوك المعلومات، والسوق الكبير للمعرفة والتسلية أصبح متوفراً للجميع، وعملياً فأنتم تسألوننا: ماذا يحدث؟

بكل بساطة الآتي: عندما تضغطون على رمز (icon) من رموز حاسوبكم المنزلي، فإنه سوف يبحث ليس فقط في ذاكرته المحدودة بطبيعة الحال، وإنما في المعين الذي لا ينضب للشبكات المعلوماتية، عن طريق الأقمار الصناعية والكبلات التي تتيح الوصول إلى المكتبات الجامعية وأرشيف المجلات والجرائد لكل البلدان، والنسخ الأندر لأفلام كانت طي النسيان، وكذلك بيانات البيع عن بعد، والمحلات التي تحرض الشهية الجنسية تجارياً، ولعب الفيديو التي لم تزد ذكاءً رغم كل هذا التطور.

إننا نقرب من السؤال الذي لم يجرؤ أحد على طرحه حقيقة، بماذا سنستخدم هذه الروائع؟ وخاصة في أي مجتمعات، ولأي هدف؟ إننا نعود بإصرار لطرح هذه المشكلة، ولكن دعونا نتهي الجولة الميدانية التقنية للأيام المقبلة التي يعدوننا بأنها ستكون مشرقة.

السرعة

إن سرعة الحصول على الصورة وحريتها ستزيد كما حصل فيما سمحت به أدوات كجهاز التحكم عن بعد وبعض وظائف جهاز الفيديو، سيكون المشاهد أكثر اختياراً في مشاهدته، وسوف يلغي دون رحمة كل المواضيع التي تبعث مله، وذلك لصالح الأمور التي يفضلها، وهذا سيخلق تناقضاً سنعرض له بالشرح لاحقاً وكلما زادت احتمالات الانفتاح كلما زاد خطر انغلاقنا على الحيز الذي نعرفه.

الإمكانية

إن إمكانيات التخزين ستستمر بالزيادة مع الوقت، فالانتقال الحديث العهد من الفلم التصويري السينمائي إلى شريط الفيديو يوحى بالخطوات العملاقة المستقبلية في هذا المجال، لا أحد يعرف الآن أي اختراع وأي أسلوب سيسيطر في المعركة الجارية على ساحة المسموع المرئي.

إن من المحتمل أن يتغلب القرص المدمج (CD) على شريط الفيديو التقليدي مؤكداً انتصار وحدات التعداد المزدوج ببساطتها على طرق التخزين الأخرى التي لن تختفي تماماً دون شك (نرى مثال هذا باستمرار سوق الأسطوانات السماعية القديمة التي تبقى المفضلة عند المولعين

بالموسيقى المُتَطَلِّبِينَ والذين يحنون للماضي)، ولكنها سوف تنحصر في مجالات خاصة.

العلاقة الحميمة

الصلة بين المستخدمين الموصوفة من قبل البعض بالساحة العامة ملتقى العشاق المستقبلية، أو ساحة القرية الإلكترونية حيث تتبادل آخر الأقاويل عن طريق فأرة الحاسوب ولوحة أزراره، ستتطور دون شك على الطريقة المشاهدة في أنظمة الهاتف وتبادل الرسائل الإباحية، والإنسان يتساءل إن كانت هذه الوسائل تحقق الصلة فعلاً، فنحن لدينا شكوك حول حقيقة هذه الصلة، ويجب ألا نخلط بين الأشياء الحقيقية وما يشابهها ظاهراً فقط، ولكن الخوض في هذا الموضوع هو عبارة عن مجال آخر للنقاش.

من الأمور الواعدة تبدو إمكانيات استغلال عمل الصحفي على سبيل المثال، فقد يتلخص عمل أيام بل وأشهر أحياناً بعدة سطور وصور أو صورتين من نوعية سيئة في إحدى الجرائد اليومية، ومع الإمكانيات التي يتيحها القرص المدمج والذاكرة الإضافية للحاسوب، يمكن للمادة الإخبارية أن تصنف بدقة، وأن تستخدم من قبل عدد غير محدود من المستخدمين في كل زمان ومكان، وهكذا تنبني إلى ما لا نهاية علاقة بين العناصر بمجرد استخدام اسم أو موقع أو تاريخ.... إلخ، هذه التجربة ليست من الخيال، ولكنها جربت في الواقع في مجلة نيوزويك التفاعلية News week Interactive بالتنسيق مع جريدة واشنطن بوست، إن كاميرا الفيديو حلت محل دفتر الملاحظات أو المسجلة التي يستخدمها الصحفي أو مذيع المذيع، إنها زيادة هائلة في الإمكانيات المتوفرة، ولكن هناك بالمقابل وأكثر من أي وقت مضى اعتماد على تقنية معقدة تتطلب

موارد اقتصادية كبيرة، ومن ثم تدخل مجموعات الضغط (اللوبيات) التي نعرف للأسف جيداً أهدافها الربحية والفكرية.

ببساطة أكبر إن إجراءات أخرى سوف تسمح لكم بالحصول على النص الصحفي ولكن على شاشاتكم، وبالنسبة للذين يحبون قراءة جريدتهم المفضلة أثناء تناول القهوة، فإن عليهم الانتباه الشديد لفتات الكرواسان الذي يأكلونه فوق لوحة الأزرار.

لست بحاجة للاختيار: شكراً!

إن التزاوج بين الحاسوب والتلفاز سيصبح قريباً أذكى منك، وسوف يوفر عليك جهد البحث بين البرامج التي لا تحصى والألعاب والمعطيات..... إلخ، بتذكر عاداتك الصغيرة وبالاحتفاظ بكل ما سيمنعك بالتأكد من كل محاولة لانفتاحك على آفاق جديدة.

سوف يُمنع موزار عن المعجبين بمايكل جاكسون، ويمكن للعنصريين أن يختصوا بفنان أكثر بياضاً منه، كيف يمكن لهذه المعجزة أن تتحقق؟ ببساطة عن طريق تذكر حاسوبك لصفاتك وسلوكك، وهكذا يوفر عليك عناء التطور ومساءلة النفس ومحاسبتها.

الوسائط المتعددة؟

تعريف تقني

الوسائط المتعددة هي... الزواج الرقمي للصورة والصوت والمعلومات الذي يسمح بالشغل عليها وتخزينها وتبادلها ومشاركتها مع الآخرين عبر الشبكات عالية القدرة.

تعريف شاعري

الوسائط المتعددة هي.... مثل الجنس عند المراهقين:

- كل الناس يفكرون به.
- كل واحد يعتقد أن الآخرين يمارسونه.
- كل الناس يتكلمون عنه ولكن لا أحد يمارسه فعلاً.
- القليلون الذين يمارسونه لا يصلون للتمتع به جيداً.
- يظن الجميع أنه سيكون رائعاً ذلك اليوم الذي نتعلم فيه كيف نمارسه.

المصدر: مورا كونت، أستاذ في EPFL الأسبوعية (إيبودو) 30

حزيران 1994م.

إن البائعين من كل الأصناف سوف يتدخلون في قدرتك على الشراء دون، أن يتعرضوا لخطر سحق أقدامهم عندما تغلق الباب في وجوههم. إن الميغابايت اللامتناهية تحت تصرفهم سوف تكشف لهم كل رغباتك الأكثر سرية، وحاجاتك الأقل إلحاحاً، ولا يبقى عليك سوى أن تقول: شكراً بانتظار الكشف الذي لن يتأخر بالوصول إليك عن نفس الطريق.

إضافة لذلك فإن انتشار الإعلانات المبوبة، والوصول لسوق الأشياء المستعملة سوف يكون سهلاً بالتأكيد.

سيكيفيك أن تستخدم لوحة الأزرار لكتابة اسم الشيء الذي تبحث عنه والشركة المنتجة وسنة الإنتاج والسعر المرغوب به لتري لائحة كاملة بالمنتج على شاشة التلفاز.

وإذا حصل وأصبحت عاطلاً عن العمل، فإمكانك البقاء في بيتك لاختيار الوظيفة التي تحلم بها بينما يسخن فرن الموجات الصغيرة الكرواسان الذي كان يجب عليك سابقاً الحصول عليه عند إنسان آخر في أمكنة منسية كانت تدعى مخابز.

إن استخدام شبكات المعلومات الواسعة في التعليم سوف يتطور في مجال المدارس، وكونوا متأكدين بأن خطوات تعليمية عملاقة تتظركم بفضل لمسة صحية للوحة أزرار عقيمة تغنيكم عن وخم مصافحة الأستاذ، أو الجراثيم الضارة التي يمكن أن تنتقل من الفم المبتسم لمُدرة بلحمها ودمها.

مستقبل الرشاد

بإمكاننا متابعة التسلية بالوعود الخرافية التي مفادها في معظم الأحيان الوصول إلى تحسين التقنيات المهم بالتأكيد، ولكنه تقدم لا يطاق أبداً معنى وهدف النشاط الإنساني، والدليل التقليدي على هذه الفكرة هو الاستعمال الحربي للاختراعات، فأجدادنا القدماء عندما اكتشفوا أول الأدوات على شكل عظم أو عصا أو قرن وعل، اكتشفوا كذلك - حسب ادعاء المتشائمين - الهراوة والمطرقة والدبوس، فأينشتاين لم يُرد القنبلة الذرية، ولم يرغب غراهام بل بالتنصت على المكالمات الهاتفية بين المواطنين.

مع الثورة التي نشهدها في عالم الإعلام تبدو هذه الحالة أكثر جلاء من أي وقت مضى، إن التقنيات الحديثة الأكثر عنفاً لا يمكنها أن تؤثر إلا في العقول الموجودة، ولكنها لا يمكنها استبدالها، فالأثر المضخم الناتج عن كابات الألياف البصرية والترقيم لن يظهر إلا على المحتويات الموجودة

سابقاً، وهذه الظاهرة تأكدت في عدة مناسبات. كلنا يتذكر الآمال التي وضعت في وسائل الإعلام المسموعة المرئية ثم في الحاسوب لتطوير التعليم، والحالة هكذا لا يمكننا إلا أن نسجل إخفاقاً أو على الأقل الحدود الصارخة لهذه الأدوات في مواجهة مشكلات المجتمع المحورية: الاندماج والإقصاء، والمنافسة الشرسة، وهيمنة الاقتصاد.... إلخ.

إن الاختراعات الأكثر جنوناً ليست لها أي قدرة على التغيير ما لم تطرح التوجهات الفلسفية والسياسية للمجتمع للنقاش، إننا نعبّر الأطلسي خلال عدة ساعات اليوم لنذهب إلى نيويورك، ولكنهم دائماً نفس الأشخاص الذين يذهبون، ويقومون بفعاليات أكثر ارتباطاً بأسعار الدولار من ارتباطها بالتقريب بين الشعوب، فنحن ننزل في فنادق نمطية متشابهة سواء كانت في هونغ كونغ أو في نيروبي، ونزدد طعاماً محايداً على كل خطوط العرض أثناء الرحلة، وبدل أن نراقب السماء فإننا نغلق ستارة النافذة لنشاهد فلماً من نوعية رديئة، وما زال معظم الرجال والنساء يسيرون على طرق ترابية بحثاً عن قليل من الماء والأمان.

أما فيروس نقص المناعة المكتسب فقد استفاد من حركات الهجرة للانتشار بسرعة أكبر، هذه التنقلات التي لا علاقة لها البتة بروعة اكتشاف آفاق جديدة من خلال السفر، استمعنا منذ عدة سنوات لمحاضرة ألقاها اختصاصي بعلم الاجتماع ماركسي التوجه وساذج جداً حاول من خلالها بيان أن التقنيات التي نملكها ستمكننا من ري الصحراء في وقت قريب، ومنذ ذلك الوقت تطورت الثقافة إلى حد أكبر من توقع المحاضر، ولكن تصحر الساحل الغربي لأفريقيا زاد أكثر.

التقليب يقتل هواة الرائي!

في نطاق الرائي ولدت ظاهرة التقليب في السبعينات مع ظهور جهاز التحكم عن بعد، أما المذيع فأصيب بهذه الظاهرة في منتصف الثمانينات مع وصول اختيار البرامج المسبق القابل للتخزين.

من المسؤول: الكبل أم الأقمار الصناعية؟

وازدادت حدة الظاهرة بظهور المحطات التلفزيونية العديدة الواصلة عن طريق الكابلات أو أطباق المستقبلات التي تعرض العديد من البرامج، في الوقت الحالي يمكنكم التقاط أكثر من مئة محطة راءٍ ومذيع عن طريق طبق استقبال جيد.

وهكذا يجد المشاهد نفسه في وجه بحر من المحطات، وأمام أنبوب الأشعة المهبطية يبدأ يشعر بالقلق يزداد شيئاً فشيئاً من عدم قدرته على القيام بالاختيار الصحيح، ويصبح الرائي وسيلة اتصال إعلامية بديلة مع العالم الخارجي، وعندها يبدأ المشاهد ببناء محطته الخاصة، فهو يحاول أن يبني برنامجه بخلط أشياء متنوعة، لأن كل شيء أصبح ممكناً اليوم، ويدخل فيما يمكن أن ندعوه «الرأي الافتراضي» لا شيء يبدو حقيقياً بعد الآن..... فالرأي أصبح معيناً لا ينضب من الصور حيث يستطيع كل إنسان أن يجد ما يشابه شيئاً ذا معنى، وأحياناً يتجاوز الرائي الافتراضي واقع المشاهد المُقلَّب فيصبح أكثر حقيقة رغم عدم وجوده.

التقليب ومشاهدي الرأي

إن التقليب إضافة إلى صنع مُقلِّبين يؤثر كذلك على محترفي الإعلام، ويجعل كل معطيات إحصائيات المشاهدة غير موضوعية. فمثلاً كان أعلى رقم للمشاهدين للمحطة TF1 في عام 1993م أثناء عرض مباراة كرة القدم بين مرسيليا وميلانو، ولكن رغم وجود آلات إحصاء المشاهدين المعقدة، كيف يمكننا التأكد من صحة الأرقام المقدمة لنا.

ففي استطلاع للرأي أجري في فرنسا لصالح محطات الكبل (Paris TV cable) هدفه معرفة ما يشاهد المشاهد كل ربع ساعة تبين أن تفوق المحطة الفرنسية الأولى (TF1) ونجاح المحطة الفرنسية الثانية France 2 متقوسان، فالاتجاه واضح، والمحطات المختصة بمواضيع مُعينة تأخذ جزءاً من مشاهدي المحطات الرائدة، فالتقليب موجود دون شك.

رأي المستقبل: أقوى ألف مرة من رأي اليوم

إن مؤلفي الكتاب لا يملكون الكرة الزجاجية الشفافة التي تسمح لهما بالكشف عن المستقبل، إنهما يملكان ككل واحد منكم، قراءنا الأعزاء، قدرة على الملاحظة الطبيعية، وجرعة من الحس النقدي، ولقد تصفحنا آلاف الصفحات من الوثائق، والسؤال المطروح هو: ما شكل رأي المستقبل؟

علينا ببساطة أن نستنتج الإجابة من رأي اليوم، ومن هنا يمكننا البدء: خذوا أي عنصر من عناصر الواقع اليوم، وكبروه بقدر الإمكانيات الحديثة المتاحة، وبإمكانكم تنبؤ المستقبل إلى حد كبير كما لو كنتم مطلعين عليه، لنرى ذلك!

إنكم مذهلون الآن من رداءة المسلسلات الجاهزة؟ ومن الآن فصاعداً فإن عليكم أن تتجرعوا ليس مسلسلاً أو مسلسلين تافهين ولكن عشرين و مئة ألفاً، فيا لحظنا!

أنتم الآن فزعون من العنف في الأفلام وألعاب الفيديو والكليب المخصصة للشباب؟ فلا تشكوا، ولن تخسروا شيئاً بالانتظار، فأبناؤنا سيكون بإمكانهم مشاهدة مجموعة أكبر بكثير من الألعاب الحربية التي تتطلب مشاركة اللاعب، سيكون بإمكانهم أن يقتلوا بواقعية شديدة قد تصل إلى الحقيقة، وستبدو الجراح وكأنها حقيقية، ومن يدرى ربما تنقل لنا تقنيات الحاسوب رائحة الدم، وربما الإحساس بالألم!

إن التعصب الوطني الأحمق الذي يسمُ الرياضة المنقولة بوسائل الإعلام يثير اشمئزازكم اليوم؟ ولكن غداً سيكون بإمكانكم بضغطة على زر أن تديقوا حكم المباراة الويل، أو ببساطة أكبر أن تشتروا له نظارات عن طريق محطة من محطات البيع التلفزيونية!

كل شيء قابل للشراء في هذا العالم المنحط، وخاصة في الغرب! فمع الزيادة الهائلة للعرض، والدفع للاستهلاك، وضرائب أجهزة إزالة التشفير، والتسعيرات المدفوعة على الدقيقة..... إلخ، سوف تصلكم كشوف الحساب دون تأخير، واطمئنتوا فسيكون بإمكانكم قريباً أن تدفعوا المال بالضغط على رمز ad hoc، وضمن المستقبل المنظور سوف يُسحب المبلغ من حسابك حتى دون أن تشعر بذلك، إلا إذا كنت غير قادر على وفاء الدين (فالتطور لن يصل إلى الكرم).

إنك تعيش اليوم حياة متواضعة شحيحة ليس لها معنى، ولكنك رغم ذلك واحد من «القلة السعداء» الذين يستهلكون وحدهم بقدر ما يستهلكه 99% من الجنس البشري من موارد الأرض؟ فلا تخف أبداً، إن تقنية جديدة تعني استبعاداً جديداً، فغداً لن تكون حياتك خاصة بعد الآن، ولكن مليئة بالحظ! (إياك أن تتخلى عن وظيفتك، وإلا.....).

سوف تفقد بالتدريج الصلة مع أطفالك المتسمرين دائماً أمام التلفاز أو منضدة ألعاب الفيديو؟ لا توجد مشكلة، فمستقبلاً سيصبح التلفاز ولعبة الفيديو جهازاً واحداً، وبفضل عرض مضاعف عشر مرات، فإنك لن تسمح لنفسك بتحطيم قلب ملاكك الغالي بمنعه من التمتع بأنظمة MEGADEHBILL أو HYPERFLAHUTE التي تلقاها من أصدقائه كهدايا.

إننا في نهاية القرن العشرين نحيا بالنيابة أكثر فأكثر، فوهم الصورة يستبدل الحقيقة، والأحاسيس العابرة تحل محل التأمل العميق، ويحل الضجيج محل الهدوء... إلخ، ليست مشكلة (No problem)، فسوف تبث محطة ما (مدفوعة، فلا بد مما ليس منه بد) برامج سكوت أثناء الدعايات التي تنشرها الشركات التي تدعم هذه المحطة.

إلا إذا كنت أنت من سيصنع تلفاز الغد.....

هل هذا هو قدرنا؟ هذا يعني أننا نسينا أن الجنس البشري قد وهبه الله القدرة على الفرار من كل توقعات المتنبئين بالمستقبل والإستراتيجيات التجارية: عن طريق الحرية.

حرية أن نقول: لا، لا نقولها للتقدم والعلم ولكن للسباق المحموم نحو أيام تمجد التجزئة الضائعة، كل الاختراعات تدعو للتفاؤل، ولكن يجب أن نحسن إخراجها، هل نريد دائماً المزيد؟ ألسنا نحيد الإضافات المفيدة لحياتنا؟ قليلاً من الروح غير المُسَعَّرَة، ومن الحياة غير المدعومة، هل هذا كثير نطلبه؟ ولكن لا بد من فعله، وطالما يوهم المشرفون على التلفاز الناس بأنهم يعبرون عن رغبات المشاهدين، فإننا لن نحصل إلا على ما نستحق، سواء كان ذلك بالأبيض والأسود أو بالوسائط المتعددة، و سواء كان بالصورة ثنائية أو ثلاثية الأبعاد، وبالنقاء العالي للصورة أو بدونه. وطالما أننا لا نستطيع التواصل بدون لوحة تحكم وفأر، فإن المعالج الأكثر عبقرية سيبقى عاجزاً عن خلق تواصل لا يعدو كونه تجاري جشع، من وجهة النظر هذه، فإن المحطات الحكومية المُدانة بتعجل من قبل عبدة إله التلفاز وعجل الدعاية الذهبي سوف يكون لها مستقبل في عالم الغد، إن تلفاز المستقبل بالنسبة لنا وربما لكم - وإلا لما كنتم قرأتم كتابنا - هو تلفاز الاحترام والحقيقة غير المُقنَّعة، والذي لا يُشْرِى عند الطلب كالغانيات. وعبارة مختصرة نريد محطات وليس نبات هوى، إن التنبؤ بعالم الغد يتطلب فهماً لعالم اليوم في المقام الأول، إن التحكم بتلفاز المستقبل يكون أولاً برفض الخنوع الدليل لتلفاز اليوم فلعل الفصول القادمة من هذا الكتاب تسهم في هذا الأمر، وأنتم كذلك أيها القراء.

المبادرة



«الحضارة هي سباق بين التربية والكارثة»

هـ . ج . ويلز

الفصل الثاني

الرأى والمدسة

ماذا يجب علينا أن نعلم شبابنا؟ وأى شباب؟ وكيف؟ ولماذا؟ وأين؟
هذه الأسئلة الكبيرة المتعلقة بشكل ومحتوى النظام التعليمى هى فى مركز الاهتمام لكل تقييم للتعليم، وتزداد أهميته كلما عاشت مجتمعاتنا تغيرات سريعة وغير قابلة للتراجع.

هل المدرسة قادرة على فعل كل شىء؟

حتى زمن قريب كان توزع المهام بين المدرسة والعائلة واضحاً، ورغم كون هذا التقسيم مضحكاً قليلاً، ولكنه كان جلياً: فالتربية تعود للأبوين بينما يعود التعليم للمدرسين، وبما أن كل واحد كان حريصاً على القيام بمهمته (أن ينظف أمام بيته)، كان الأطفال محميين.

ورغم ذلك ففى نهاية الستينات أظهر استطلاع أجري فى بلجيكا أن من أصل مئة معلومة موجودة عند الأطفال فى نهاية دراستهم فى المدارس، حصل هؤلاء الأطفال على اثني عشر معلومة فقط عن طريق المدرسة، أما التسعة أعشار الباقية فمصدرها الأهل والأصدقاء، والشوارع وقليلاً الرأى حتى فى ذلك الوقت.

هذه الملاحظة المذهلة لم تصدم كثيراً أو قليلاً الأوساط السياسية والمدسية، كان المربون يؤكدون أن دور المدرسة هو التزويد «بالوسائل»